Read on Dialectical Interrelationship Between the Science of History and (Sociology Ibn Khaldun's Specimen)

قراءة في الترابط الجدلي بين علمي التاريخ والاجتماع شخصية ابن خلدون نموذجا

د. علي العبيدي
قسم التاريخ
جامعة تلمسان

د. كاظم حسن الاسدي
قسم التاريخ
جامعة كربلاء

الملخص

هناك تلازم بين ميداني التاريخ والاجتماع حتى تمكن علم الاجتماع ان يبتعد عن هذا الارتباط، ونتيجة لذلك افرز حالة بين التنافس بين الاثنين على اعتبار كلاهما يعمل على دراسة الظواهر الاجتماعية علما هناك اختلاف في القواعد المنهجية في دراسة تلك المظاهر. لذلك تكون مهمة المختص في علم الاجتماع هو التعميم، بينما المؤرخ دراسة الحدث حيث التركيز على الخصائص الدقيقة له. ولكي نفهم خصوصية عملها كل على حدة علينا معرفة المنهجية التي يتبعها كل واحد منهم، ولعله من المفيد هنا حصر ميدان علم الاجتماع اختص بدراسة الانسان والمجتمع دراسة علمية، بمعنى اخر انه يهتم بالأفعال والعلاقات الإنسانية، فضلا عن خصائص المجتمع وعملياته وهي تدخل ضمن اهتمام المؤرخ، وهذا يوضح بشكل جلي ان نقاط الالتقاء بين التاريخ وعلم الاجتماع أكثر عمقا من نقاط الاختلاف، من هنا نستطيع القول ان هذا التداخل بين العلمين أسس لتصور يدعو الى ضروه ان تنشا تكاملية بين علمي التاريخ والاجتماع.

Abstract

There is a correlation between the field of history and sociology even managed sociology should keep away from this link, as a result, the case resulted from the rivalry between the two since both are working on the study of social phenomena note there is a difference in the systematic study of the rules in those appearances. Therefore, in the task of sociology is circular, while the study of the event, where his focus on the exact characteristics. In order to understand the privacy of their work separately, we should know the methodology used by each and every one of them. It may be useful here inventory sociology field of specialized study of human society and the scientific study, in other words, he cares deeds and human relations, as well as community properties and operations which fall within the interest of. This clearly demonstrates that the the meeting points between history and sociology deeper than the points of disagreement, from here we can say that this overlap between Alamein foundations for visualizing calls indispensability be created complementarity between scientific history and sociology.

مقدمة:

من المعروف أن ميداني التاريخ والاجتماع وجدا في حالة من التلازم فيما بينهما، واستمرت هذه التلازمية موجودة حتى تمكن علم الاجتماع، بالتدريج، من الابتعاد عن هذه الارتباط أو التبعية، أن صح التعبير، للتاريخ. ونتيجة ذلك، افرز هذا الانسلاخ حالة من التنافس بين الاثنين على اعتبار أن كلاهما يعمل على دراسة الظواهر الاجتماعية. ومع كونهما يختلفان من حيث القواعد المنهجية التي يتم فيها دراسة تلك الظواهر، علما أن هذا الاختلاف يكمن، بشكل أساس، في إجراءاتهما للإجابة المرتبطة بأغراض البحث. وعلى الرغم من وحدة المصدر الذي يستقي منه المؤرخ والاجتماعي معلوماتهما، إلا أن الاختلاف المنطقي يكمن بين الطرفين فيما يتعلق بآلية تعامل كل منهما مع تلك البيانات وكيفية توظيفهما لها. وذلك لان مهمة المختص في علم الاجتماع هو التعميم، بينما من مهام المؤرخ دراسة الحدث من حيث التركيز على الخصائص الدقيقة له. ومع ذلك كلاهما لدية مشروعية علمية لاغبار عليها. لأنهما من جهة أخرى هما متكاملان أكثر من كونهما متعارضان، وذلك لان رؤية الحوادث مفردة يخدم في إمكانية تصنيفها في فئات معينة، من خلال العلاقة المتلازمة بينهما[1].

ولكي نفهم خصوصية كل من التاريخ والاجتماع علينا إلقاء نظرة سريعة على المنهجية التي يتبعها كل واحد منهما إلى جانب الميدان الذي يتناولاه. وفي هذا الميدان كتب الكثير من الكتاب، ولكن بشكل مختصر نستطيع أن نعرف علم الاجتماع على انه العلم الذي يدرس الإنسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث فهو يدرس المجتمع ككل في ثباته وتغيره ويدرس الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع[2]. بمعنى أخر فهو العلم الذي يهتم اهتماماً

كبيراً بالأفعال والعلاقات الإنسانية، كما انه يدرس المجتمع، وبناءه، ووظائفه وعملياته، وهذه تدخل أيضاً ضمن اهتمامات المؤرخ[3] .

ومن خلال ما سبق، يمكننا القول أن نقاط الالتقاء بين التاريخ والاجتماع أكثر عمقا من نقاط الاختلاف، ومن بين نقاط الالتقاء نذكر[4] :

1. إن التاريخ والاجتماع نوع من الدراسة التاريخية.
2. المؤرخ غالبا ما يقدم مادة يستعين بها عالم الاجتماع.
3. يستفيد المؤرخ من علم الاجتماع كما يستفيد من الفلسفة التي كان يستمد منها المفاهيم والأفكار العامة وأصبحت الآن تؤخذ من علم الاجتماع.
4. كلاهما يتأثر بقدر متساوي بفلسفة التاريخ التي تؤكد للمؤرخ تصور المراحل التاريخية وتمنحه أفكاراً نظرية، كما أنها تزود علم الاجتماع بفكرة النماذج التاريخية للمجتمع.
5. إن التاريخ وعلم الاجتماع يستخدمان نفس الإطار المرجعي الرسمي في دراسة نماذج المجتمع.

إما وجه الخلاف بين علم التاريخ وعلم الاجتماع فينحصر باختلاف لايعدو حيزاً غير منظور حسب قول تروفر روبر(Trevor Roper):" أن المؤرخ يهتم بالتفاعل بين الشخصية والقوى الاجتماعية العامة، بينما يعني عالم الاجتماع عناية واضحة بهذه القوى الاجتماعية ذاتها"[5] .

ومن هنا نستطيع القول، أن هذا التداخل بين العلمين أسس لتصور يدعو إلى ضرورة أن تنشا تكاملية بين علمي التاريخ والاجتماع، لان التاريخ يقدم للباحث في علم الاجتماع الدلائل والوقائع الموثقة من اجل انجاز دراسته، فانه بالمقابل يقدم علم الاجتماع للمؤرخ الرؤية الاستدلالية للحدث التاريخي ممثله في نماذج وصور تسهل عليه الوصول إلى الاستنتاجات الدقيقة والحقيقية[6] . وهكذا فان العلاقة وثيقة جدا بين علم الاجتماع والتاريخ، حتى أن واحدا من مشاهير الباحثين، وهو جورج هوارد (George E. Howard)، ذهب إلى القول بان:" التاريخ هو علم اجتماع الماضي وعلم الاجتماع هو تاريخ الحاضر"[7] .

شخصية ابن خلدون أنموذجاً:

ابن خلدون شخصية لاحاجة لنا إلى التعريف بها، فهو أشهر من أن يعرف، فهو يعد من أعظم المفكرين في العالم. وقد جاءت شهرته من كونه أول من درس المجتمع البشري بطريقة واقعية حيث خرج بها عن الطريقة الوعظية التي كانت قد سيطرة على الأذهان طيلة القرون القديمة والوسطى كما يشير إلى ذلك الدكتور علي الوردي[8]. ولكن هذا الوصف لايمنع من التوقف عند بعض المحطات الهامة في حياة ابن خلدون من اجل التعرف إلى هذه الشخصية التي اخترناها كنموذج في تبيان الترابط بين التاريخ والاجتماع.

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، كنيته أبو زيد، ولد في تونس في يوم 27 ماي عام 1332، لأسرة من أصول يمنية. أقبل ابن خلدون على العلم فقام بدراسة القرآن الكريم وتفسيره، والحديث والفقه واللغة هذا بالإضافة لعدد من العلوم الأخرى على يد عدد من علماء المنطقة[9] . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انقطع عن التعليم، بسبب انتشار مرض (الطاعون) وهجرة معظم العلماء والأدباء، واخذ يتطلع إلى الوظائف العامة والسير في الطريق نفسه الذي سار فيه أجداده فوصل إلى أعلى مناصب الحكم في عهود سلاطين عديدين، فتولى كتابة السر، وخطة المظالم، وصار وزيراً وحاجباً وسفيراً ومدرساً وقاضياً وخطيبا[10] . ويعلق الدكتور مصطفى الشكعة واصفا شخصية ابن خلدون بالقول:"كانت شخصية ابن خلدون جذابة في كل جوانبها، ولكن جانبين اثنين منها قد جذبا أنظار القدامى والمحدثين من الباحثين، أما الجانب الأول فهو الجانب الفكري والثقافي، أما الجانب الثاني فهو الجانب السياسي"[11] .

سعى ابن خلدون دائماً من أجل العلم والمعرفة فكان مطلعاً على أراء العلماء السابقين، فعمل على تحليل الآراء المختلفة ودراستها، ونظراً لرحلاته في العديد من البلدان في شمال إفريقيا والشام والحجاز وعمله بها وإطلاعه على كتبها، فقد اكتسب العديد من الخبرات وذلك في عدد من المجالات سواء في السياسة أو القضاء أو العلوم، فجاءت أفكاره التي وصلت إلينا تتمتع بقدر كبير من العلم والموضوعية.

شغل ابن خلدون عدد من المهام أثناء حياته فتنقل بين عدد من المهام الإدارية والسياسية، وشارك في عدد من الثورات فنجح في بعضها وأخفق في الأخر مما ترتب عليه تعرضه للسجن والإبعاد، تنقل ابن خلدون بين كل من مراكش والأندلس وتونس ومن تونس سافر إلى مصر وبالتحديد القاهرة ووجد هناك له شعبية هائلة فعمل بها أستاذاً للفقه المالكي ثم قاضياً وبعد أن مكث بها فترة أنتقل إلى دمشق ثم إلى القاهرة ليتسلم القضاء مرة أخرى، ونظراً لحكمته وعلمه تم إرساله في عدد من المهام كسفير لعقد اتفاقات للتصالح بين الدول، وبالرغم المهام التي كلف بها تمكن ابن خلدون من إيجاد الوقت من أجل الدراسة والتأليف[12] .

قدم ابن خلدون عدد من المؤلفات الهامة نذكر من هذه المؤلفات "المقدمة" الشهيرة والتي قام بإنجازها عندما كان عمره ثلاثة وأربعون عاماً، وكانت هذه المقدمة من أكثر الأعمال التي أنجزها شهرة، ومن مؤلفاته الأخرى نذكر "رحلة ابن خلدون في المغرب والمشرق" وقام في هذا الكتاب بالتعرض للمراحل التي مر بها في حياته. ومن الكتب التي احتلت مكانة هامة أيضاً نجد كتاب " العبر" و" ديوان المبتدأ والخبر" والذي جاء في سبع مجلدات أهمهم "المقدمة " حيث يقوم في هذا الكتاب بمعالجة الظواهر الاجتماعية والتي يشير إليها في كتابه باسم "واقعات العمران البشري. توفى ابن خلدون في القاهرة عام 1406.

ابن خلدون المؤرخ:

لم نضف جديدا، إذا ما قلنا ان العرب المسلمين في تصنيفهم للعلوم تأثروا بالمنهج الأرسطي الذي لانجد فيه مكانا للتاريخ، ونستحضر مثالا على ذلك في (إحصاء العلوم) للفارابي، ولعل الخوارزمي في مفاتيح العلوم هو أول عالم مسلم يدخل التاريخ في تصنيفه، وإن دعاه (بالأخبار) وجعله في جملة (العلوم الشرعية) في مقابل (علوم العجم)، وعلى نحو ذاته يذهب معاصره ابن النديم في كتابه الفهرست فيجعل التاريخ - وقد دعاه (بالأخبار والسير) - في جملة العلوم الأصلية في مقابل (العلوم الأجنبية). وعندما استقرت الحال بالحضارة العربية الإسلامية في ذروتها، جرى تعديل في تصنيف العلوم، التزم به ابن خلدون، فصارت هناك (علوم نقلية) و(علوم عقلية)، وصار المعنى بالعلوم النقلية علوم القرآن والحديث والفقة والكلام وما إليها، كما صار المعنى بالعلوم العقلية علوم المنطق والرياضيات والطبيعة وما بعد الطبيعة وما إليها[13].

إذا كان ابن خلدون قد عاود هذا التصنيف في مقدمته، فإن لنا أن نستغرب كيف. وهو المؤرخ الكبير- لايضع التاريخ في أي من التصنيفين؟[14]. ويرد الدكتور سالم حميش مثل هذا الرأي بالقول:"هذه الملحوظة ليست صائبة بما أن التاريخ عند صاحبنا هو مقدمة المقدمة ودائرة الدائرة، حيث هو فن أصيل في الحكمة عريق، وجدير بان يعد في علومها وخليق"[15]. وتأكيداً لهذا الرأي يقدم ابن خلدون تعريفاً منطقياً للتاريخ في مقدمته، بالقول:" التاريخ فن من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والإغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد في علومها وخليق"[16]. وفي مكان آخر يقول:"اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لان الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني"[17]. ومن خلال ما سبق يعبر ابن خلدون عن رفضه لمنهج الإسناد الذي يركز على نقد الرواة، ويعبر عنه(علم الجرح والتعديل)، كما يرفض منهج (التقليد) الذي يركز على النقل عن أئمة المؤرخين ويسلم بصدقهم، ويجعل مقصده دراسة الواقعة المفردة كما هي بنظر العقل وليس غير العقل، ويرفض أي خبر لا تسنده قوانين(العمران) أي المجتمع، ويأتي بأمثلة من أحقاب تاريخية شتى تدعم هذه الفكرة[18]. ويرى الدكتور عبادة كحيلة من أن ابن خلدون هو أول مفكر عربي ينتزع علم التاريخ من جملة (العلوم النقلية)، ويصنفه علما عقليا، وانه من طائفة العلوم النقلية[19].

وبما التاريخ فرع من فروع البحث والاستقصاء للوصول إلى الحقائق الدقيقة والفهم الصحيح للماضي. ولأن للتاريخ وظائف نقدية واجتماعية ونفسية وتعليمية، ولأننا جميعاً أسرى لماضينا، بمعنى أن اختياراتنا محددة بما مر في الماضي، فان من المهم على نحو كبير أن نحاول تحرير تاريخنا من الأساطير والخرافات[20]. وعليه، فأن قراءة ابن خلدون للتاريخ لم تكن ذات خصوصية مختلفة عن من كتب التاريخ من قبله. ولكن الجديد الذي جاءه به، ويستحق التوقف عنده، هو تصوره أن دراسة التاريخ الحقيقي لابد أن تتم من خلال تناول جوهر الحدث، وليس من خلال دراسة الظواهر البادية على السطح للحدث. و يؤكد هذا الرأي صراحة الدكتور محمد عابد الجابري، مستعينا بما كتبه ابن خلدون عن فهمه للتاريخ ودراسته حينما يقول: "انه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بان يعد في علومها وخليق"[21].

لم يكن اهتمام ابن خلدون بالتاريخ، واهتمامه بأحداث الماضي، من باب التسلية وملا الفراغ، وإنما نظر إليه على انه الميدان الذي يستطيع من خلاله الإنسان الأخذ بالكثير من التجارب والعبر، بما يمكنه من فهم الحاضر. وعليه فان ابن خلدون لم يتجه للتاريخ من اجل كتابة أحداثه بقدر ما أراد أن يستفتيه، ويطلب منه الدروس التي من شانها ان تساعده على فهم الحاضر ومشاكله التي تشبع وعيه بمعطياتها دون ان تتبلور في ذهنه عناصر التفسير واضحة كاملة. وبحجم التجربة السياسية والاجتماعية التي تمتع بها ابن خلدون فقد اكتشف استحالة تقبل ماكتبه المؤرخون من دون أن يتم إخضاع مضمون ذلك للنقد والتحليل كما أشرت من قبل. ومن هنا لايمكن أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً صنعته الصدفة، بقدر ما هو ذلك المؤرخ المتمرس الذي استطاع أن يجمع بين المتغير السياسي والاجتماعي للخروج برؤية جديدة تقدم تفسيرا لما كانت عليه الأمة[22]. لاسيما وان عصر ابن خلدون تزامن مع مرحلة أفول الحضارة العربية الإسلامية، وأصبح ممكنا النظر للتاريخ الإسلامي كحالة متكاملة، بما يمكننا من فهمه فهما أفضل وأحسن[23]. ويتضح لنا من خلال ما سبق، أن منهج ابن خلدون قائم على أساس عقلاني علماني، أن صح التعبير، فهو يحاول إيجاد الثوابت التاريخية والاجتماعية، ولايلجا إلا إلى الملاحظة التجريبية الثابتة، دون الاستعانة نتيجة ذلك، بأية تدخلات فوق طبيعية. ومقدمته، بلا أدنى شك، خير دليل على ذلك، فهي تركز على التحليل السياسي من دون الدخول في الغيبيات[24].

لقد حاول ابن خلدون أن لايكون تقليدياً في نظرته للتاريخ، وحاول التخلص من النظرة الضيقة التي درج عليها من سبقوه في تعاملهم مع الحدث التاريخي. فهو يرى أن التاريخ لايمكن أن تنحصر روايته بما حدث من فتوحات ومعارك، وما تأسس من دول عبر التاريخ البشري، بل يجب إن يتعامل المؤرخ مع كل التحولات التي تشهدها الحياة الاجتماعية، على اختلاف مظاهرها. فالمتغيرات الاقتصادية والثقافية والعلمية لها أثرها في تغير مسار الأحداث. وهي بدورها تؤثر على سير الأحداث التاريخية[25]. ومن هنا، جاءت نظرة ابن خلدون للتاريخ مختلفة بعض الشي عما سبقه من كتاب في هذا الميدان. لان تداخلات وقائع الماضي مع أحداث الحاضر، ونتيجة تجربته السياسية والاجتماعية، بلورت في ذهن ابن خلدون العديد من الملاحظات والقراءات لتصبح من بعد نظريات اجتماعية وسياسية عظيمة. ويصفها هنا الدكتور محمد عابد الجابري، بالقول:" لقد كانت هذه النظريات في الأصل براعم مغلقة، زرعت بذورها ملاحظات لاواعية لما يجري في الحاضر، وقد كان يمكن لها أن تبقى كذلك إلى أن تتلاشى وتموت،

ولكن النظر في التاريخ، وبالضبط في أخطاء المؤرخين، قد فتحها، فأصبحت أفكاراً واعية تتغذى من جديد من استقراء حوادث الحاضر والماضي معا"[26].

خلاصة القول، أن التاريخ في مفهوم ابن خلدون ليس مجرد حوادث تتعاقب في الزمان دون خضوع لعوامل معينة، بل هناك خيوط تنظم هذا التعاقب، وثوابت توجه مسراه ومجراه، فكما الحوادث الطبيعية تجري وفق قوانين معينة فان الوقائع الاجتماعية والتاريخية هي الأخرى لها طبائع خاصة بها أيضا[27] . لقد حاول البعض التشكيك بقدرات ابن خلدون[28]، وعدم الاعتراف بأصالة فكره، وانه انتحله من غيره، ثم نسبه إلى نفسه، يستندون في ذلك إلى أن عصره، لم يكن عصر ابتكار، إنما هو عصر تجميع تشهد عليه المؤلفات الموسوعية التي هي سمة عامة للعصر المملوكي في مصر والشام[29] . ولكن هذا لايعني تقليل من شان ابن خلدون بقدر ما هو دلاله على الجدلية التي أثارتها شخصيته ودورها في ترسيخ منزلة العالم العربي المسلم في ميدان الإبداع والتميز.

ابن خلدون رائد علم الاجتماع :

يعتبر ابن خلدون أول من دعا إلى إنشاء علم العمران البشري(علم الاجتماع)، وهذا العمران لديه يعني الاجتماع الإنساني وظاهراته، فهو لم يدرس الاجتماع الإنساني إلا بقصد ما يلحقه من العوارض والأحوال واحدة بعد أخرى. لقد تطلع إلى المجتمع من خلال الطفولة والشباب والهرم كما هو الحال بالنسبة للدولة، واشبع هذا الموضوع إشباعاً يكاد يكون متكاملا[30] . ويرى الدكتور رأفت غنيمي الشيخ أن ابن خلدون نجح في الاستفادة من خبرته الموسوعية، لاسيما في حقل التاريخ، ليوظفه في وضع أسس علم جديد، بقوله:" لقد اخذ ابن خلدون من الفلسفة نظرتها العقلية التعميمية، ومن التاريخ واقعيته والاستردادية من منهجه ليكون منهما علماً واحداً يجذب فيه التاريخ والفلسفة إلى علم الوقائع حتى لاتحلق في سماء اليوتوبيات وتعمق فيه الفلسفة من التاريخ حتى لايصبح مجرد سرد أخبار"[31] . لقد عمد ابن خلدون عند أوليات تسجيل أفكاره إلى الاهتمام بعلم التاريخ والتركيز على خطورته باعتباره الأساس الوحيد للنظرية الجديدة التي اهتدى إليها، والتي اسماها علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري[32] .

لقد أكد ابن خلدون على الترابط الجدلي بين التاريخ والاجتماع، العلم الذي وضع أسسه، حينما اعتبر التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم. ومن خلال هذا الترابط كون ابن خلدون نظريته في العمران الإنساني التي استندت على قاعدتين : الأولى تتعلق بالتاريخ والثانية تتعلق بالعمران، والأخيرة تعتمد في تأصيل مكوناتها التي تشكل العمران على دقة القاعدة الأولى ومصداقيتها. وعليه فقد اهتم ابن خلدون،قبل كل شي، في تنقية التاريخ من الشوائب التي لحقت به، حينما عمل على وضع قواعد لفهمه، وأسساً للتميز بين الروايات الصادقة والأخرى الكاذبة. هذه الآلية التي سار عليها في فهمه للتاريخ. جعلت ابن خلدون يضع أسس منهج دقيق في التحليل، ورؤية صادقة في الاستنتاج، استثمره فيما بعد في بلورة أسس العلم الجديد (العمران البشري)[33] .

لقد أراد ابن خلدون التأكيد من خلال مقدمته على أن العلم الذي وضعه أسسه علم مستقل لان له على حسب المنطق العربي الخواص الحقيقية للعلم المستقل. لأنه يمتلك موضوع خاص، وله مسائله، وله غايته. وكذلك حاول ابن خلدون أن يميزه عن بعض العلوم التي كانت معروفه قبله والتي قد ترتبط به وهي المنطق والبلاغة والسياسة[34].

ومن الواجب الإشارة هنا، إلى أن ابن خلدون، مثل بقية مفكري عصره، لم يكن متخصصاً في حقل معين من حقول المعرفة. ولكن تركيزه على ميدان التاريخ فرضته الظروف التي كانت تحيط به. إلا أن ذلك لم يكن ظرفاً عرضياً، مثلما يحاول أن يظهره البعض[35] ، بقدر ما هو محاولة منه في استقراء الظروف التي أحاطه به لإيجاد قراءة مناسبة يستطيع من خلالها فهم تداعيات المرحلة التي هو فيها. ومن هنا، لم يكن اعتزاله الحياة العامة طوال أربع سنوات(1375- 1379) بقلعة بني سلامة، رغبة منه في كتابة عمل تاريخي فحسب، وإنما أرادها وقفه تأملية يستطيع من خلالها إعادة تنظيم حيثيات المرحلة بما يجعله قادراً على وضع قراءة واقعية تمكنه من العودة إلى الحياة العامة بالصورة التي كان يريدها هو لنفسه.

لقد حاول ابن خلدون من خلال دراسته للتاريخ بحث تطور الظواهر التي يشهدها عهده، لأنه وجد أن الفهم الحقيقي لها يرتبط بضرورة تتبع جذورها، حتى وصلت إلى شكلها الحالي. أي أراد تتبع نشأتها وتطورها من حيث البناء والوظيفة، وذلك بقصد مبادئ وتعميمات تتعلق بالظواهر الاجتماعية موضع البحث. إذ وجد ابن خلدون بضرورة تعقب الظاهرة الواحدة في تاريخ الشعب الواحد على مر فتراته التاريخية المختلفة مع تحري الأمانة والصدق[36]. ويعلق الدكتور محمد عابد الجابري بهذا الخصوص، قائلا:" من هنا بدا اهتمام ابن خلدون بالتاريخ، واهتمامه هذه المرة بأحداث الماضي، ليس من اجل التسلية، أو مجرد العلم بها وبتفاصيلها، بل من أجل استنطاقها، واستيفاء مجرياتها، والاستعانة بذلك على فهم الحاضر"[37] . ويتضح هذا الرأي جليا في كتابه "المقدمة" حينما يتناول موضوع التاريخ بالقول:" حقيقة التاريخ، انه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشا عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"[38]. وبناءا عليه، نستطيع القول أن ابن خلدون تمكن من توظيف رؤيته الاجتماعية في تكريس البعد التاريخي الذي أراد من خلاله وضع الإجابات الدقيقة لما كانت تعاني منه الأمة آنذاك[39].

كان ابن خلدون مقتنعا بان الظواهر الاجتماعية لاتخضع للمصادفة ولا تسير حسب الأهواء، أو الرغبة الشخصية. وإنما تخضع في نشأتها ونموها وكافة جوانبها لقوانين ثابتة ومطردة. ومن ثم جاء اهتمام ابن خلدون بدراسة الظواهر لا لمجرد وصفها أو بيان ما ينبغي أن تكون عليه، كما كان سائدا من قبله بين المفكرين، وإنما تناولها مع ربطها بالسياق التاريخي وتحليلها بالصورة التي تساعدها على كشف طبيعتها، وما تقوم عليه من أسس وظروف ساعدت على نشأتها وتطورها والقوانين التي تخضع لها وتتحكم في مسارها[40] .

أن ابن خلدون من منطلق منهجه ومفهومه الجديد في قراءة التاريخ وربطه بالحاضر، قد جعل المجتمع الإنساني كله مادة لدراسته وتأملاته، وحقلا لتجاربه وتحليلاته، وتتبع الظواهر الطبيعية التي تحيط بالمجتمع وتؤثر فيه في مختلف أحواله وتتابع أطواره، في نشأته الأولى في مرحلة البداوة، وفي استقراره في الحضر، وفي مرحلة الدولة وتأرجحها بين القوة والضعف، والنهوض والسقوط، والنصر والهزيمة، وأحوال المجتمع وعناصر تكوينه، وأساليب حياته، وأنماط سلوكه، وطرائق سعيه، وما يفضي إلى نضجه ورفاهيته، وما يؤذن بفساده وانحلاله، كل ذلك مع الاهتمام الشديد بنظام الحكم وأسلوبه، والحياة الاقتصادية، والنشاط الثقافي، وتعدد المهن[41].

لقد أراد ابن خلدون من علم العمران البشري، الذي وضع أسسه، أن يظهر من أن الظواهر البشرية شانها شان ظواهر الكون الأخرى تخضع لقوانين تتحكم بها وتحدد مسارها. وبناءا عليه، أكد ابن خلدون على ضرورة دراستها دراسة وضعية للوقوف على طبيعتها والقوانين التي تحكمها. ومن ثم تناول الظواهر الاجتماعية بالتحليل والتفسير في ضوء سياقها الاجتماعي والثقافي المميز لتاريخ المجتمعات. دون أن يكون متأثراً بآراء مسبقة عنها، ودون أن يكون ملتزما بخط فكري واحد، وإنما الذي التزم به في دراسته التاريخية للظواهر الاجتماعية هو ربطها بالسياق الاجتماعي والثقافي للمجتمعات البشرية، واعتقاده بان تلك الظواهر الاجتماعية متغيره ولأتثبت على حال واحد، ولكنها تختلف باختلاف المجتمعات وباختلاف العصور التاريخية للمجتمع الواحد أيضاً[42].

الخاتمة:

ونستطيع من خلال شخصية ابن خلدون أن نقدم صورة متكاملة عن الترابط الوثيق بين علمي التاريخ والاجتماع. لان ابن خلدون لم يكن مؤرخاً تقليدياً مثل الآخرين، وإنما أنساناً موسوعياً جمعت إبداعاته في التاريخ والاجتماع صفات قلما نجدها في معاصريه، فهو مفكر ورجل دولة في فترة صعبة من حياة الأمة. لقد تحدث ابن خلدون في العمران البشري والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة والتعليم... بما قد يجر المتعجل إلى السؤال: من أي تخصص هو؟، فقد عد تارة من علماء الاجتماع وتارة من علماء التربية وأخرى من مفكري السياسة... والواقع، كما نراه، هو أن ابن خلدون كان وفيا للتاريخ، والتاريخ فحسب، شريطة أن يفهم التاريخ بأنه المجرى الذي يستوعب حركة البشر بكل جوانبها، ويشمل الإطار الزمان والمكان اللذين يحتويان هذه الحركة، إذ من المؤكد أن ابن خلدون كان يؤمن بوحدة حركة الإنسان وتكاملها، وبالتالي كانت حتمية الشمول في نظرة المؤرخ إلى كل جوانب هذه الحركة، تلك الجوانب التي مثل بعضها مقدمات وبعضها الأخر نتائج، مع احتمال تبادل الأدوار أحياناً وفقا لمتغيرات الزمان والمكان[43]. لقد أدرك ابن خلدون منذ البداية، مرحلة بلورة الأفكار، أهمية التاريخ. مما جعله يركز على خطورته باعتباره الأساس الوحيد للنظرية الجديدة التي اهتدى إليها، والتي اسماها علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري.

لقد نجح ابن خلدون في بناء جسرا منهجيا بين علمي التاريخ والاجتماع في محاولة جريئة ومبتكرة، في عصره، لدراسة وقائع العمران البشري بأقصى قدر من الموضوعية حتى يتجنب طغيان العامل الذاتي عليه، والذي كثيرا ما يدفع الكاتب في مزالق الخطأ. كان ابن خلدون يرى أن الواقعة التاريخية هي في حقيقتها خبر عن واقعة اجتماعية متى حدثت فقد أصبحت حدثا تاريخياً، لذلك ارتبطت عنده الظواهر الاجتماعية بالصيرورة الزمانية واتسمت بالتعاقب الدائم لتترك بصماتها على التاريخ.

الهوامش:

1. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، دار العلم للملايين، 1982، ط4، ص 706-707؛ احمد رأفت عبد الجواد، مبادئ علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، بلا تاريخ نشر، ص33.
2. قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1990، ط1، ص 61-62.
3. عبد الواحد ذنون طه، اصول البحث التاريخي، بيروت، دار المدار الاسلامي، 2004، ط1، ص 61-62.
4. قاسم يزبك، المصدر السابق ، ص 63-64.
5. المصدر السابق ، ص 64.
6. فاطمة قدوره الشامي، علم التاريخ ... تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين، بيروت، دار النهضة العربية، 2001، ط1، ص 195-196.
7. عبد الواحد ذنون طه، المصدر السابق ، ص 62.
8. علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، لندن، دار كوفان، 1994، ط2، ص 11.
9. عمر فروخ، المصدر السابق ، ص 691.
10. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الكويت، عالم المعرفة، 1981، ص 54.
11. مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، بيروت، الدار المصرية اللبنانية، 1992، ط3، ص21.
12. المصدر السابق ، ص 22.
13. مقدمة الدكتور عبادة كحيلة في كتاب: تاريخ ابن خلدون ... كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافية، 2007، ص 22-23.
14. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية... تحليل والنقد، ترجمة: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1925، ط1، ص35؛ عبادة كحيلة، المصدر السابق ، ص 23.
15. سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998، ص 38.
16. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار صادر، 2000، ط1، ص11.

17. المصدر نفسه، ص15.
18. مصطفى الشكعة، المصدر السابق، ص 40.
19. عبادة كحيلة، المصدر السابق، ص 23-24.
20. David S. Landes and Charles Tilly (ed.), History As Social Science, London , Prentice-Hall , 1971 , pp. 5-6 .
21. محمد عابد الجابري، فكرة ابن خلدون ... العصبية والدولة معالم نظرية ابن خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ط6، ص 91.
22. محمد الطالبي، منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر، بحث منشور في كتاب:(ابن خلدون والفكر العربي المعاصر) تونس، الدار العربية للكتاب، 1980، ص 27؛ سالم حميش، المرجع السابق، ص 51.
23. محمد عابد الجابري، المصدر السابق ، ص 92-93.
24. جورج لابيكا، تباشير اجتماعيات الدين عند ابن خلدون، ترجمة: شبيب بيضون، مقال منشور في مجلة: دراسات عربية، العدد 6، السنة 1986، بيروت، ص 90.
25. بوبكر عواطي، الجسر المنهجي بين علم الاجتماع والتاريخ عند ابن خلدون، بحث منشور في مجلة: الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 6، 2005، قسنطينة، ص 115.
26. محمد عابد الجابري، المصدر السابق ، ص 94.
27. المصدر السابق ، ص 97.
28. ينظر على سبيل المثال: محمود إسماعيل، نهاية أسطورة ... نظرية ابن خلدون مقتبسه من رسائل أخوان الصفا، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
29. للمزيد من التفاصيل، ينظر: عبادة كحيلة، المصدر السابق، ص 25.
30. قاسم يزبك، المصدر السابق، ص 62.
31. رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1988، ص40.
32. مصطفى الشكعة، المصدر السابق ، ص 38.
33. المصدر السابق ، ص 51.
34. طه حسين، المصدر السابق، 51.
35. يحاول الدكتور بوبكر عواطي أن يظهر علاقة ابن خلدون بالتاريخ جاءت بمحض الصدفة ليس أكثر مستندا في ذلك إلى أن كل الكتب التي كتبها تدل على خلاف ذلك. للتفاصيل ينظر: بوبكر عواطي، المرجع السابق، ص 114.
36. احمد رأفت عبد الجواد، مبادئ علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، 1982، ص41.
37. محمد عابد الجابري، المصدر السابق، ص 92.
38. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 34.
39. محمد الطالبي، المصدر السابق، ص 26.
40. بوبكر عواطي، المصدر السابق ، ص 116.
41. مصطفى الشكعة، المصدر السابق، ص 52.
42. بوبكر عواطي، المصدر السابق ، ص 116 – 117.
43. عبادة كحيلة، المصدر السابق ، ص 13.

قائمة المصادر:

اولا: المصادر العربية:

1. احمد رأفت عبد الجواد، مبادئ علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، 1982.
2. بوبكر عواطي، الجسر المنهجي بين علم الاجتماع والتاريخ عند ابن خلدون، بحث منشور في مجلة: الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 6، 2005، قسنطينة.
3. جورج لابيكا، تباشير اجتماعيات الدين عند ابن خلدون، ترجمة: شبيب بيضون، مقال منشور في مجلة: دراسات عربية، العدد 6، السنة 1986، بيروت.
4. رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1988.
5. سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998.
6. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية... تحليل والنقد، ترجمة: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1925، ط1.
7. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الكويت، عالم المعرفة، 1981.
8. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار صادر، 2000، ط1.
9. عبد الواحد ذنون طه، اصول البحث التاريخي، بيروت، دار المدار الاسلامي، 2004، ط1.
10. علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، لندن، دار كوفان، 1994، ط2.
11. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، دار العلم للملايين، 1982، ط4، ص 706-707؛ احمد رأفت عبد الجواد، مبادئ علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، بلا تاريخ نشر.
12. فاطمة قدوره الشامي، علم التاريخ ... تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين، بيروت، دار النهضة العربية، 2001، ط1.
13. قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، بيروت، دار الفكر اللبناني، 1990، ط1.
14. محمد الطالبي، منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر، بحث منشور في كتاب:(ابن خلدون والفكر العربي المعاصر) تونس، الدار العربية للكتاب، 1980.
15. محمد عابد الجابري، فكرة ابن خلدون ... العصبية والدولة معالم نظرية ابن خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ط6.
16. محمود إسماعيل، نهاية أسطورة ... نظرية ابن خلدون مقتبسه من رسائل أخوان الصفا، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
17. مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، بيروت، الدار المصرية اللبنانية، 1992، ط3.
18. مقدمة الدكتور عبادة كحيلة في كتاب: تاريخ ابن خلدون ... كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافية، 2007.

ثانيا: الاجنبية:

19. David S. Landes and Charles Tilly (ed.), History As Social Science, London , Prentice-Hall , 1971 .